تفسير سورة الروم

هى ستون آية. قال القرطبى : كلها مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة الروم بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج عبد الرزاق وأحمد، قال السيوطى : بسند حسن ، عن رجل من الصحابة ؛ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح ، فقرأ فيها سورة الروم . وأخرج البزار عن الأغر المدنى مثله . وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير ، أن النبى ﷺ قرأ فى الفجر يوم الجمعة بسورة الروم . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، وأحمد وابن قانع من طريق عبد الملك بن عمير مثل حديث الرجل الذى من الصحابة، وزاد : يتردد فيها ، فلما انصرف قال : إنما يلبس علينا فى صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة فليحسن الطهور(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾ .

قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة فى فاتحة سورة البقرة وتقدم الكلام على محلها من الإعراب ومحل أمثالها فى غير موضع من فواتح السور. قرأ الجمهور : ﴿ **غلبت الروم** ﴾ بضم الغين المعجمة وكسر اللام مبنيا للمفعول ، وقرأ على بن أبى طالب وأبو سعيد الخدرى ومعاوية

---

(١) ابن أبى شيبة ١/ ٥ و أحمد ٥/ ٣٦٣ وقال ابن كثير ٥/ ٣٧٥ : « هذا إسناد حسن ومتن حسن ، وفيه سر عجيب ، ونبأ غريب وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به فدل على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام » .

ابن قرة وابن عمر وأهل الشام بفتح الغين واللام مبنيا للفاعل . قال النحاس : قراءة أكثر الناس: ﴿ **غُلبت** ﴾ بضم الغين وكسر اللام . قال أهل التفسير: غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة وقالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب، وافتخروا على المسلمين وقالوا: نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب .

ومعنى ﴿ **فى أدنى الأرض** ﴾ : فى أقرب أرضهم من أرض العرب ، أو فى أقرب أرض العرب منهم . قيل : هى أرض الجزيرة. وقيل : أذرعات. وقيل : كسكر. وقيل : الأردن. وقيل: فلسطين ، وهذه المواضع هى أقرب إلى بلاد العرب من غيرها، وإنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود فى ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب. وقيل : إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه. والتقدير: فى أدنى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم ، ويكون المعنى : فى أقرب أرض الروم من العرب. قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن فهى أدنى إلى أرض الروم ﴿ **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ أى والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون أهل فارس ، والغلب والغلبة لغتان، والمصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور. وإلى الفاعل على قراءة غيرهم. قرأ الجمهور : ﴿ **سيغلبون** ﴾ مبينا للفاعل. وقرأ على وأبو سعيد ومعاوية بن قرة وابن عمر وأهل الشام على البناء للمفعول، وسيأتى فى آخر البحث ما يقوى قراءة الجمهور فى الموضعين . وقرأ أبو حيوة الشامى وابن السميقع : «من بعد غلبهم » بسكون اللام .

﴿ **فى بضع سنين** ﴾ متعلق بما قبله ، وقد تقدم تفسير البضع واشتقاقه فى سورة يوسف ، والمراد به هنا : ما بين الثلاثة إلى العشرة﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾ أى هو المنفرد بالقدرة وإنفاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم ووقت غالبيتهم ، فكل ذلك بأمر الله سبحانه وقضائه، قرأ الجمهور: ﴿ **من قبل ومن بعد** ﴾ بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة، والتقدير: من قبل الغلب ومن بعده ، أو من قبل كل أمر ومن بعده. وحكى الكسائى « من قبلِ ومن بعدُ » بكسر الأول منونا وضم الثانى بلا تنوين. وحكى الفراء « من قبلِ ومن بعدِ » بكسرهما من غير تنوين، وغلطه النحاس . قال شهاب الدين : قد قرئ بكسرهما منونين . قال الزجاج : ومعنى الآية : من متقدّم ومن متأخر ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله** ﴾ أى يوم أن تغلب الروم على فارس فى بضع سنين يفرح المؤمنون بنصر الله للروم لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب ، بخلاف فارس فإنه لا كتاب لهم ، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم . وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، والأول أولى . قال الزجاج : وهذه الآية من الآيات التى تدل على أن القرآن من عند الله لأنه إنباء بما سيكون ، وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه ﴿ **ينصر من يشاء** ﴾ أن ينصره ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الغالب القاهر

﴿**الرحيم**﴾ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين . وقيل : المراد بالرحمة هنا : الدنيوية ، وهى شاملة للمسلم والكافر .

﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده** ﴾ أى وعد الله وعدا لا يخلفه ، وهو ظهور الروم على فارس ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أن الله لا يخلف وعده ، وهم الكفار ، وقيل : كفار مكة على الخصوص . ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا** ﴾ أى يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا وملاذها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع . وقيل :الظاهر : الباطل ﴿ **وهم عن الآخرة** ﴾ التى هى النعمة الدائمة ، واللذة الخالصة ﴿ **هم غافلون** ﴾ لا يلتفتون إليها ولا يعدون لها ما يحتاج إليه ، أو غافلون عن الإيمان بها والتصديق بمجيئها .

﴿ **أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما** ﴾ الهمزة للإنكار عليهم ، والواو للعطف على مقدر كما فى نظائره ، و ﴿ **فى أنفسهم** ﴾ ظرف للتفكر وليس مفعولا للتفكر والمعنى : أن أسباب التفكرحاصلة لهم، وهى أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغى لعلموا وحدانية الله وصدق أنبيائه . وقيل : إنها مفعول للتفكر . والمعنى: أو لم يتفكروا فى خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئا ؟ و « ما » فى : ﴿ **ما خلق الله** ﴾ نافية ، أى لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذى يحق ثبوته أو هى اسم فى محل نصب على إسقاط الخافض ، أى بما خلق الله، والعامل فيها العلم الذى يؤدى إليه التفكر. وقال الزجاج :فى الكلام حذف ، أى فيعلموا، فجعل« ما » معمولة للفعل المقدّر لا للعلم المدلول : عليه ، والباء فى : ﴿ **إلا بالحق** ﴾ إما للسببية، أو هى ومجرورها فى محل نصب على الحال، أى ملتبسة بالحق . قال الفراء : معناه : إلا للحق ، أى للثواب والعقاب. وقيل : بالحق : بالعدل . وقيل : بالحكمة . وقيل : بالحق ، أى أنه هو الحق وللحق خلقها ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ معطوف على الحق ، أى وبأجل مسمى للسموات والأرض وما بينهما تنتهى إليه ، وهو يوم القيامة ، وفى هذا تنبيه على الفناء ، وأن لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه . وقيل : معنى ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ : أنه خلق ما خلق فى وقت سماه لخلق ذلك الشىء ﴿ **وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون** ﴾ أى لكافرون بالبعث بعد الموت ، واللام هى المؤكدة ، والمراد بهؤلاء : الكفار على الإطلاق ، أو كفار مكة .

﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم فى الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار ، والفاء فى: ﴿ **فينظروا** ﴾ للعطف على ﴿ **يسيروا** ﴾ داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع والتوبيخ، والمعنى : أنهم قد ساروا وشاهدوا ﴿ **كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ من طوائف الكفار الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم بالله وجحودهم للحق وتكذيبهم للرسل ، وجملة : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾ مبينة للكيفية التى كانوا عليها ، وأنهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الأمور الدنيوية ، ومعنى ﴿ **وأثاروا الأرض** ﴾ : حرثوها وقلبوها للزراعة وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل مكة أهل حرث ﴿ **وعمروها أكثر مما عمروها** ﴾ أى

عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء ؛ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعمارا ، وأقوى أجساما ، وأكثر تحصيلا لأسباب المعاش ، فعمروا الأرض بالأبنية والزراعة والغرس﴿ **وجاءتهم رسلهم** ﴾ بالبينات، أى المعجزات . وقيل : بالأحكام الشرعية ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ بتعذيبهم على غير ذنب ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ بالكفر والتكذيب .

﴿ **ثم كان عاقبة الذى أساؤوا** ﴾ أى عملوا السيئات من الشرك والمعاصى ﴿ **السوأى** ﴾ هى فعلى من السوء تأنيث الأسوأ ، وهو الأقبح ، أى كان عاقبتهم العقوبة التى هى أسوأ العقوبات. وقيل : هى اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدرا كالبشرى والذكرى ، وصفت به العقوبة مبالغة . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: « عاقبة » بالرفع على أنها اسم كان ، وتذكير الفعل لكون تأنيثها مجازيا ، والخبر السوأى ، أى الفعلة أو الخصلة أو العقوبة السوأى أو الخبر﴿ **أن كذبوا** ﴾ أى كان آخر أمرهم التكذيب . وقرأ الباقون:﴿ عاقبة ﴾ بالنصب على خبر كان ، والاسم السوأى ، أو أن كذبوا ، ويكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساؤوا ، والسوأى مصدر أساؤوا أو صفة لمحذوف . وقال الكسائى : إن قوله : ﴿ **أن كذبوا** ﴾ فى محل نصب على العلة، أى لأن كذبوا بآيات الله التى أنزلها على رسله ، أو بأن كذبوا ، ومن القائلين بأن السوأى : جهنم : الفراء والزجاج وابن قتيبة وأكثر المفسرين ، وسميت سوأى لكونها تسوء صاحبها. قال الزجاج: المعنى :ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله واستهزائهم، وجملة : ﴿ **وكانوا بها يستهزئون** ﴾ عطف على كذبوا ، داخلة معه فى حكم العلية على أحد القولين ، أو فى حكم الاسمية لكان ، أو الخبرية لها على القول الآخر .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ،والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الم . غلبت الروم** ﴾ قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم كانوا أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال : ألا جعلته ــ أراه قال ــ : دون العشر ، فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله : ﴿ **الم . غلبت الروم** ﴾ فغلبت، ثم غلبت بعد بقول الله: ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ [1] . قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا

---

(١) أحمد ١/ ٢٧٦ والترمذى فى التفسير (٣١٩٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٤٠٩) والطبرانى ١٢٣٧٧/ ٢ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٣٠ .

عليهم يوم بدر . وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب نحوه ، وزاد : أنه لما مضى الأجل ولم تغلب الروم فارس، ساء النبى ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ قال : تصديقا لله ولرسوله فقال : تعرض لهم وأعظم الخطة واجعله إلى بضع سنين ، فأتاهم أبو بكر فقال : هل لكم فى العود فإن العود أحمد ؟ قالوا : نعم ، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا رومية ، فقمر أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هذا السحت تصدق به .

وأخرج الترمذى وصححه ، والدارقطنى فى الأفراد ، والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والبيهقى فى الشعب عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت : ﴿ **الم . غلبت الروم** ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ، لأنهم وإياهم أهل الكتاب ، وفى ذلك يقول الله : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله** ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة: ﴿ **الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين** ﴾ فقال ناس من قريش لأبى بكر : ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر: لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا ننتهى إليه ، قال : فسموا بينهم ست سنين ، فمضت الست قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسميته ست سنين ، لأن الله قال : ﴿ **فى بضع سنين** ﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير (١) . وأخرج الترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ قال لأبى بكر : « لا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع » (٢) . وأخرج البخارى عنه فى تاريخه نحوه . وأخرج الفريابى ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين، فنزلت : « الم . غلبت الروم » (٣) قرأها بالنصب ، يعنى للغين على البناء للفاعل إلى قوله : ﴿ **يفرح المؤمنون . بنصر الله** ﴾ . قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس ، وهذه الرواية مفسرة لقراءة أبى سعيد ومن معه .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٩٤) وقال : « هذا حديث صحيح حسن غريب » ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله وهو متروك » .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٩١) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٢١/ ١٥ .

(٣) الترمذى فى القراءات (٢٩٣٥) وفى التفسير (٣١٩٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٢١ / ١٥ .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبى الدرداء قال: سيجىء أقوام يقرؤون: « الم . غَلبت الروم » يعنى بفتح الغين، وإنما هى ﴿ غُلِبتْ ﴾ : يعنى بضمها (٤) ، وفى الباب روايات وما ذكرناه يغنى عما سواه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا** ﴾ يعنى : معايشهم ، متى يغرسون ؟ ومتى يزرعون ؟ ومتى يحصدون ؟. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾ قال : كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أى يخلقهم أولا ، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ إلى موقف الحساب ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وأفرد الضمير فى : ﴿ **يعيده** ﴾ باعتبار لفظ الخلق وجمعه فى : ﴿ **ترجعون** ﴾ باعتبار معناه .

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤١٠ ووافقه الذهبى .

قرأ أبو بكر وأبو عمرو : « يرجعون » بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة . ﴿ **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يُبلس** ﴾ على البناء للفاعل. وقرأ السلمى على البناء للمفعول ، يقال : أبلس الرجل : إذا سكت وانقطعت حجته . قال الفراء والزجاج : المبلس : الساكت المنقطع فى حجته الذى أيس أن يهتدى إليها ، ومنه قول العجاج :

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قـال :نعم أعـرفه وأبلسا

وقال الكلبى: أى يئس المشركون من كل خيرحين عاينوا العذاب ، وقد قدمنا تفسيرالإبلاس عند قوله : ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ [الأنعام : ٤٤] . ﴿ **ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء** ﴾ أى لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من دون الله شفعاء يجيرونهم من عذاب الله ﴿ **وكانوا** ﴾ فى ذلك الوقت ﴿ **بشركائهم** ﴾ أى بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿ **كافرين** ﴾ أى جاحدين لكونهم آلهة ؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون ولا يضرون. وقيل : إن معنى الآية : كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتهم ، والأول أولى . ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ أى يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله : ﴿ **الله يبدأ الخلق** ﴾ والمراد بالتفرق : أن كل طائفة تنفرد ، فالمؤمنون يصيرون إلى الجنة ، والكافرون إلى النار ، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ [الشورى : ٧] وذلك بعد تمام الحساب فلا يجتمعون أبدا .

ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم فقال : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون** ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول معنى « أما » : دع ما كنا فيه وخذ فى غيره ، وكذا قال سيبويه : إن معناها : مهما يكن من شىء فخذ فى غير ما كنا فيه . والروضة : كل أرض ذات نبات . قال المفسرون : والمراد بها هنا : الجنة ، ومعنى ﴿ **يحبرون** ﴾ : يسرون . والحبور والحبرة : السرور ، أى فهم فى رياض الجنة ينعمون . قال أبوعبيد : الروضة : ما كان فى سفل ، فإذا كان مرتفعا فهو : ترعة . وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى مكان مرتفع ، ومنه قول الأعشى .

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل

وقيل : معنى ﴿ **يحبرون** ﴾ : يكرمون . قال النحاس : حكى الكسائى : حبرته ، أى أكرمته ونعمته ، والأولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربى ، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام والنعيم ، وفى السرور زيادة على ذلك . وقيل : التحبير : التحسين ، فمعنى ﴿**يحبرون** ﴾ يحسن إليهم . وقيل : هو السماع الذى يسمعونه فى الجنة . وقيل : غير ذلك ، والوجه ما ذكرناه . ﴿ **وأما الذين كفروا** ﴾ بالله ﴿ **وكذبوا بآياتنا** ﴾ وكذبوا بـ ﴿ **لقاء الآخرة** ﴾ أى البعث والجنة والنار ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، وهو مبتدأ

obeikandl.com

وخبره : ﴿ **فى العذاب محضرون** ﴾ أى مقيمون فيه . وقيل : مجموعون . وقيل : نازلون. وقيل : معذبون ، والمعانى متقاربة ، والمراد دوام عذابهم .

ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر والخير العام فقال: ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون** ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فإذا علمتم ذلك فسبحوا الله ، أى نزهوه عما لا يليق به فى وقت الصباح والمساء وفى العشى وفى وقت الظهيرة. وقيل : المراد بالتسبيح هنا : الصلوات الخمس. فقوله : ﴿ **حين تمسون** ﴾ : صلاة المغرب والعشاء ، وقوله : ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ : صلاة الفجر ، وقوله : ﴿ **وعشيا** ﴾ : صلاة العصر ، وقوله : ﴿ **وحين تظهرون** ﴾ : صلاة الظهر ، وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغيرهما . قال الواحدى : قال المفسرون : إن معنى ﴿ **فسبحان الله** ﴾ : فصلوا لله . قال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية فى الصلوات قال : وسمعت محمد بن يزيد يقول : حقيقته عندى : فسبحوا الله فى الصلوات ؛ لأن التسبيح يكون فى الصلاة . وجملة : ﴿ **وله الحمد فى السموات والأرض** ﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد ، والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح كما فى قوله سبحانه : ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ [الحجر : ٩٨] وقوله : ﴿ونحن نسبح بحمدك ﴾ [البقرة : ٣٠] وقيل : معنى ﴿ **وله الحمد** ﴾ أى الاختصاص له بالصلاة التى يقرأ فيها الحمد ، والأول أولى . وقرأ عكرمة : « حينا تمسون وحينا تصبحون » والمعنى : حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه . والعشى : من صلاة المغرب إلى العتمة. قاله الجوهرى ، وقال قوم : هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، ومنه قول الشاعر :

غدونا غدوة سحرا بليل عشيا بعد ما انتصف النهار

وقوله : ﴿ **عشيا** ﴾ معطوف على حين و ﴿ **فى السموات** ﴾ متعلق بنفس الحمد ، أى الحمد له يكون فى السموات والأرض ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة ﴿ **ويخرج الميت من الحىّ** ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان . وقد سبق بيان هذا فى سورة آل عمران . وقيل : ووجه تعلق هذه الآية بالتى قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم ﴿**ويحيى الأرض بعد موتها** ﴾ أى يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ، وهو شبيه بإخراج الحى من الميت ﴿**وكذلك تخرجون** ﴾ أى ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم. قرأ الجمهور: ﴿**تخرجون**﴾ على البناء للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى على البناء للفاعل ، فأسند الخروج إليهم كقوله : ﴿يوم يخرجون من الأجداث ﴾ [المعارج : ٤٣] ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب** ﴾ أى من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم، أى خلق أباكم آدم من تراب وخلقكم فى ضمن خلقه؛ لأن الفرع مستمد من الأصل ومأخوذ منه ، وقد مضى تفسير هذا فى الأنعام . و « أن » فى موضع رفع بالابتداء و﴿ **من آياته** ﴾ خبره ﴿ **ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ « إذا » هى الفجائية،

أى ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الأرض . وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهى أطوار الإنسان كما حكاه الله فى مواضع : من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار ، ومعنى ﴿ **تنتشرون** ﴾ : تنصرفون فيما هو قوام معايشكم .

﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً** ﴾ أى ومن علاماته ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، أى من جنسكم فى البشرية والإنسانية . وقيل : المراد: حواء ؛ فإنه خلقها من ضلع آدم ﴿ **لتسكنوا إليها** ﴾ أى تألفوها وتميلوا إليها ، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر ولا يميل قلبه إليه ﴿ **وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ أى ودادا وتراحما بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة ، فضلا عن مودة ورحمة . وقال مجاهد : المودة : الجماع ، والرحمة : الولد ، وبه قال الحسن. وقال السدى : المودة : المحبة ، والرحمة : الشفقة . وقيل : المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء . وقوله : ﴿ **أن خلق لكم** ﴾ فى موضع رفع على الابتداء ، و ﴿ **من آياته** ﴾ خبره ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور سابقا ﴿ **لآيات** ﴾ عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث والنشور ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له يتحصل عنه . وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام .

﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض** ﴾ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة ، التى هى أجرام السموات والأرض ، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار ، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ، ما هو عبرة للمعتبرين ، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم وينشركم من قبوركم ﴿ **واختلاف ألسنتكم** ﴾ أى لغاتكم من عرب وعجم ، وترك ، وروم غير ذلك من اللغات ﴿ **وألوانكم** ﴾ من البياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والخضرة ، مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة ، ويجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية ، وفصل واحد وهو الناطقية ، حتى صرتم متميزين فى ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا ، بل فى كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد ، وفى هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يفهمه إلا المتفكرون ﴿**إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين بر وفاجر ، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين وقرأ حفص وحده بكسرها . قال الفراء : وله وجه جيد لأنه قد قال : ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ ، ﴿ لآيات لأولى الألباب ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾ . قيل : فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار وقيل : المعنى صحيح

من دون تقديم وتأخير ، أى ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل ، وتنامون بالنهار فى بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة ، وابتغاؤكم من فضله فيهما ، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك ، وإن كان ابتغاء الفضل فى النهار أكثر . والأول هو المناسب لسائر الآيات الواردة فى هذا المعنى ، والآخر هو المناسب للنظم القرآنى ها هنا . ووجه ذكر النوم والابتغاء ها هنا وجعلهما من جملة الأدلة على البعث : أن النوم شبيه بالموت ، والتصرف فى الحاجات والسعى فى المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ أى يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر ، فيستدلون بذلك على البعث ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا**﴾ المعنى : أن يريكم ، فحذف « أن» لدلالة الكلام عليه ، كما قال طرفة :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟

والتقدير : أن أحضر ، فلما حذف الحرف فى الآية والبيت بطل عمله، ومنه المثل المشهور: « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى ويريكم البرق من آياته ، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة اسمية، ويجوز أن يكون ﴿ **يريكم** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى ومن آياته آية يريكم بها وفيها البرق ، وقيل : التقدير : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته . قال الزجاج : فيكون من عطف جملة على جملة . قال قتادة : خوفا للمسافر ، وطمعا للمقيم . وقال الضحاك : خوفا من الصواعق ، وطمعا فى الغيث . وقال يحيى بن سلام :خوفا من البرد أن يهلك الزرع ، وطمعا فى المطر أن يحيى الزرع .وقال ابن بحر : خوفا أن يكون البرق برقا خلبا لا يمطر ، وطمعا أن يكون ممطرا ، وأنشد :

لا يكن برقك برقا خلبا إن خير البرق ما الغيث معه

وانتصاب ﴿ **خوفا** ﴾ و ﴿ **طمعا** ﴾ على العلة ﴿ **وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها** ﴾ أى يحييها بالنبات بعد موتها بالياس ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة . ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ أى قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه وقدرته بلا عمد يعمدها ، ولا مستقر يستقران عليه. قال الفراء : يقول : أن تدوما قائمتين بأمره﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾أى ثم بعد موتكم ومصيركم فى القبور، إذا دعاكم دعوة واحدة فاجأتم الخروج منها بسرعة، من غير تلبث ولا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع. و﴿ **من الأرض** ﴾ متعلق بـ« دعا » ، أى دعاكم من الأرض التى أنتم فيها، كما يقال : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة ، أو متعلق بمحذوف يدل عليه تخرجون، أى خرجتم من الأرض ، ولا يجوز أن يتعلق بـ﴿ **تخرجون** ﴾ ؛ لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها، وهذه الدعوة هى نفخة إسرافيل الآخرة فى الصور على ما تقدم بيانه ، وقد أجمع القراء على فتح التاء فى﴿ **تخرجون** ﴾ هنا وغلط من قال إنه قرئ هنا بضمها على البناء للمفعول ، وإنما قرئ بضمها فى الأعراف .

﴿ **وله من فى السموات والأرض** ﴾ من جميع المخلوقات ملكا وتصرفا وخلقا ، ليس لغيره فى ذلك شىء ﴿ **كل له قانتون** ﴾ أى مطيعون طاعة انقياد . وقيل : مقرون بالعبودية . وقيل : مصلون . وقيل : قائمون يوم القيامة كقوله: ﴿ يوم يقوم الناس لربّ العالمين ﴾ [المطففين: ٦] أى للحساب. وقيل: بالشهادة أنهم عباده. وقيل: مخلصون ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾ أى هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم ، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، وإلا فلا شىء فى قدرته بعضه أهون من بعض، بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله: كن، فتكون . قال أبو عبيد: من جعل أهون ؛ عبارة عن تفضيل شىء على شىء فقوله مردود بقوله: ﴿ **وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ [النساء: ٣٠] وبقوله: ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ [البقرة : ٢٥٥] والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا، كما فى قول الفرزدق :

إن الـذى سمـك السماء بنى لنا بيتـا دعائـمه أعـزّ وأطـول

أى عزيزة طويلة ، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى لست بواحد ، ومثله قول الآخر :

لعمـرك إن الـزبـرقـان لـبـاذل لمعـروفه عـند السنين وأفضـل

أى وفاضل ، وقرأ عبد الله بن مسعود: « وهو عليه هين » . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن الإعادة أهون عليه، أى على الله من البداية ، أى أيسر وإن كان جميعه هينا. وقيل : المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية، وقيل: الضمير فى: ﴿ **عليه** ﴾ للخلق، أى وهو أهون على الخلق؛ لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون، ويقال لهم: كونوا فيكونون، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ قال الخليل : المثل : الصفة ، أى وله الوصف الأعلى ﴿ **فى السموات والأرض** ﴾ كما قال : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ [الرعد: ٣٥] أى صفتها. وقال مجاهد: المثل الأعلى قول : لا إله إلا الله ، وبه قال قتادة . وقال الزجاج : ﴿ **وله المثل الأعلى فى السموات والأرض** ﴾ أىْ قوله : ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾ قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل. وقيل : المثل الأعلى : هو أنه ليس كمثله شىء. وقيل: هو أن ما أراده كان بقول : كن ، و﴿ **فى السموات والأرض** ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة ، والمعنى : أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى، ووصف به فى السموات والأرض ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى، أو المثل ، أو من الضمير فى الأعلى ﴿ **وهو العزيز** ﴾ فى ملكه، القادر الذى لا يغالب ﴿ **الحكيم** ﴾ فى أقواله وأفعاله .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يبلس** ﴾ قال : يبتئس . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم : ﴿ **يبلس** ﴾ قال : يكتئب ، وعنه: الإبلاس : الفضيحة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يحبرون** ﴾ قال : يكرمون . وأخرج الديلمى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ؟ ميزوهم ، فيميزون فى كثب المسك والعنبر؛ ثم يقول للملائكة: أسمعوهم من تسبيحى وتحميدى وتهليلى ، قال : فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط ». وأخرج الدينورى فى المجالسة عن مجاهد قال : ينادى مناد يوم القيامة. . . فذكر نحوه ، ولم يسم من رواه له عن رسول الله. وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى ، والأصبهانى فى الترغيب عن محمد بن المنكدر نحوه. وأخرج ابن أبى الدنيا والضياء المقدسى كلاهما فى صفة الجنة، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: فى الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجدّ فى ظلها مائة عام ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها، فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة مرفوعا نحوه.

وأخرج الفريابى وابن مردويه عن ابن عباس قال: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم ، وصححه عن أبى رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن ؟ قال: نعم ، فقرأ: ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ : صلاة المغرب ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ : صلاة الصبح ﴿ **وعشيا** ﴾ : صلاة العصر﴿ **وحين تظهرون** ﴾ : صلاة الظهر، وقرأ : ﴿ من بعد صلاة العشاء ﴾ [النور:٥٨]. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة: ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ قال : المغرب والعشاء ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ : الفجر﴿ **وعشيا** ﴾ : العصر﴿ **وحين تظهرون** ﴾ : الظهر . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن السنى فى عمل يوم وليلة، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : « سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » [1] وفى إسناده ابن لهيعة. وأخرج أبو داود والطبرانى وابن السنى وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : « سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك

(١) أحمد ٣/ ٤٣٩ وابن جرير ٢٧/ ٤٣ والطبرانى ٢٠/ ١٩٢ (٤٢٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٢٠: « وفيه ضعفاء وثقوا » .

تخرجون » أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » [١] وإسناده ضعيف.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل له قانتون** ﴾ يقول : مطيعون : يعنى : الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾ قال : أيسر . وأخرج ابن الأنبارى عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾ قال : الإعادة أهون على المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة: كن، فيكون، وابتدأ الخلقة من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ يقول: ليس كمثله شيء.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾.

قوله: ﴿ **ضرب لكم مثلا** ﴾ قد تقدم تحقيق معنى المثل ، و« من » فى : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ لابتداء الغاية وهى ومجرورها فى محل نصب صفة لمثلا، أى مثلا منتزعا ومأخوذا من أنفسكم فإنها أقرب شيء منكم، وأبين من غيرها عندكم، فإذا ضرب لكم المثل بها فى بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحا. ثم بين المثل المذكور فقال : ﴿ **هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء**

---

(١) أبو داود فى الأدب (٥٠٧٦) والطبرانى (١٢٩٩١) . وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن البيلمانى وابنه وكلاهما ضعيف . عبد الرحمن البيلمانى لينه أبو حاتم وضعفه الدارقطنى ، وابنه قال البخارى وأبو حاتم : « منكر الحديث » ، وضعفه الدارقطنى وغيره .ميزان الاعتدال (٤٨٢٧) ، (٧٨٢٧) .

فيما رزقناكم ﴾. « من » فى: ﴿ **مما ملكت** ﴾ للتبعيض، وفى: ﴿ **من شركاء** ﴾ زائدة للتأكيد، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذى ملكت أيمانكم؟ وهم العبيد والإماء، والاستفهام للإنكار، وجملة : ﴿ **فأنتم فيه سواء** ﴾ جواب للاستفهام الذى بمعنى النفى، ومحققة لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم فى أموالهم ، أى هل ترضون لأنفسكم ـ والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم فى البشرية ـ أن يساووكم فى التصرف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ؟ ﴿ **تخافونهم كخيفتكم أنفسكم** ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، أى تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم، أى كما تخافون الأحرار المشابهين لكم فى الحرية وملك الأموال وجواز التصرف، والمقصود نفى الأشياء الثلاثة : الشركة بينهم وبين المملوكين ، والاستواء معهم ، وخوفهم إياهم. وليس المراد ثبوت الشركة ونفى الاستواء والخوف كما قيل فى قولهم: ما تأتينا فتحدثنا. والمراد: إقامة الحجة على المشركين فإنهم لابد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم فى البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟ فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة؛ بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الربّ وحده لا شريك له . قرأ الجمهور : ﴿ **أنفسكم** ﴾ بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله ، وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿ **كذلك نفصل الآيات** ﴾ تفصيلا واضحا وبيانا جليا ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم فى تدبرها والتفكر فيها .

ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل فقال : ﴿**بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم** ﴾ أى لم يعقلوا الآيات ، بل اتبعوا أهواءهم الزائغة. وآراءهم الفاسدة الزائفة ، ومحل ﴿ **بغير علم** ﴾ النصب على الحال ، أى جاهلين بأنهم على ضلالة ﴿ **فمن يهدى من أضل الله** ﴾ أى لا أحد يقدر على هدايته؛ لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أى ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم ، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه . ثم أمر رسوله ﷺ بتوحيده وعبادته كما أمره فقال: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا** ﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه وإقباله عليه. وانتصاب ﴿**حنيفا** ﴾ على الحال من فاعل أقم أو من مفعوله ، أى مائلا إليه مستقيما عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة .

﴿**فطرت الله التى فطر الناس عليها** ﴾ الفطرة فى الأصل: الخلقة، والمراد بها هنا : الملة ، وهى الإسلام والتوحيد. قال الواحدى : هذا قول المفسرين فى فطرة الله ، والمراد بالناس هنا : الذين فطرهم الله على الإسلام ؛ لأن المشرك لم يفطر على الإسلام، وهذا الخطاب وإن كان خاصا برسول الله فأمته داخلة معه فيه . قال القرطبى باتفاق من أهل التأويل : والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعا مفطورون على ذلك لولا

عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ وفى رواية : على هذه الملة ـ ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ » ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ (١) . وفى رواية : « حتى تكونوا أنتم تجدعونها » . وسيأتى فى آخر البحث ما ورد معاضدا لحديث أبى هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مفطور، أى مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق. والقول بأن المراد بالفطرة هنا : الإسلام هو مذهب جمهور السلف . وقال آخرون : هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها ، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة. والفاطر فى كلام العرب هو المبتدئ ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة وإهمال معناها شرعا. والمعنى الشرعىّ مقدم على المعنى اللغوى باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافى ذلك ورود الفطرة فى الكتاب أو السنة فى بعض المواضع مرادا بها المعنى اللغوى كقوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ [فاطر :١] أى خالقهما ومبتديهما ، وكقوله : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ [يس : ٢٢] إذ لا نزاع فى أن المعنى اللغوى هو هذا، ولكن النزاع فى المعنى الشرعى للفطرة وهو ما ذكره الأولون كما بيناه، وانتصاب ﴿ **فطرة** ﴾ على أنها مصدر مؤكد للجملة التى قبلها . وقال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى اتبع فطرة الله ، قال : لأن معنى﴿ **فأقم وجهك للدين** ﴾ : اتبع الدين واتبع فطرة الله. وقال ابن جرير: هى مصدر من معنى﴿ **فأقم وجهك** ﴾ لأن معنى ذلك : فطرة الله الناس على الدين . وقيل : هى منصوبة على الإغراء ، أى الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، ورد هذا الوجه أبو حيان وقال : إن كلمة الإغراء لا تضمر إذ هى عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض والمعوض عنه وهو إجحاف . وأجيب بأن هذا رأى البصريين، وأما الكسائى وأتباعه فيجيزون ذلك .

وجملة: ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة، أى هذه الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. وقيل: هو نفى معناه النهى، أى لا تبدلوا خلق الله. قال مجاهد وإبراهيم النخعى: معناه: لا تبديل لدين الله. قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد: هذا فى المعتقدات. وقال عكرمة: إن المعنى: لا تغيير لخلق فى البهائم بأن تخصى فحولها ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة هو الدين القيم ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ذلك حتى يفعلوه ويعملوا به . ﴿**منيبين إليه** ﴾ أى راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، ومطيعين له فى أوامره ونواهيه. ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

---

(١) أحمد ٢/ ٣١٥ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٥) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨/ ٢٢) .

فإن تابوا فإن بنى سليم وقومهم هوازن قد أنابوا

قال الجوهرى: أناب إلى الله: أقبل وتاب، وانتصابه على الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنى ﴿ **أقم وجهك** ﴾ : أقيموا وجوهكم . قال الفراء : المعنى : فأقم وجهك ومن معك منيبين، وكذا قال الزجاج وقال : تقديره : فأقم وجهك وأمتك ، فالحال من الجميع . وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه. وقيل: هو منصوب على القطع. وقيل: على أنه خبر لكان ، محذوفة، أى وكونوا منيبين إليه لدلالة ﴿**ولا تكونوا من المشركين**﴾ على ذلك. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة فقال ﴿ **واتقوه** ﴾ أى :باجتناب معاصيه وهو معطوف على الفعل المقدرناصبا لمنيبين ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ التى أمرتم بها ﴿ **ولا تكونوا من المشركين** ﴾ بالله .

وقوله : ﴿ **من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا** ﴾ هو بدل مما قبله بإعادة الجار، والشيع: الفرق ، أى لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقا فى الدين يشايع بعضهم بعضا من أهل البدع والأهواء . وقيل : المراد بالذين فرقوا دينهم شيعا : اليهود والنصارى . وقرأ حمزة والكسائى : «فارقوا دينهم » ورويت هذه القراءة عن على بن أبى طالب، أى فارقوا دينهم الذى يجب اتباعه، وهوالتوحيد. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى آخر سورة الأنعام ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ أى كل فريق بما لديهم من الدين المبنى على غير الصواب مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شيء . وقال الفراء :يجوز أن يكون قوله : ﴿ **من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا** ﴾ مستأنفا كما يجوز أن يكون متصلا بما قبله ﴿ **وإذا مس الناس ضر** ﴾ أى قحط وشدة ﴿ **دعوا ربهم** ﴾ أن يرفع ذلك عنهم واستغاثوا به ﴿ **منيبين إليه** ﴾ أى راجعين إليه ملتجئين به لا يعولون على غيره. وقيل: مقبلين عليه بكل قلوبهم ﴿ **ثم إذا أذاقهم منه رحمة** ﴾ بإجابة دعائهم ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿ **إذا فريق منهم بربهم يشركون** ﴾ « إذا » هى الفجائية وقعت جواب الشرط لأنها كالفاء فى إفادة التعقيب، أى فاجأ فريق منهم الإشراك وهم الذين دعوه فخلصهم مما كانوا فيه. وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم، واللام فى ﴿**ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ هى لام كى. وقيل: لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، وقيل: هى لام العاقبة. ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال : ﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم. قرأ الجمهور : ﴿ **فتمتعوا** ﴾ على الخطاب. وقرأ أبو العالية بالتحتية على البناء للمفعول، وفى مصحف ابن مسعود: «فليتمتعوا » .

﴿**أم أنزلنا عليهم سلطانا** ﴾ أم هى المنقطعة، والاستفهام للإنكار والسلطان : الحجة الظاهرة ﴿**فهو يتكلم** ﴾أى يدل كما فى قوله : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ [الجاثية : ٢٩] قال الفراء: إن العرب تؤنث السلطان يقولون: قضت به عليك السلطان ، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة. وقيل : المراد بالسلطان هنا : الملك ﴿ **بما كانوا به يشركون** ﴾ أى ينطق بإشراكهم بالله سبحانه ، ويجوز أن تكون الباء

سببية ، أى بالأمر الذى بسببه يشركون ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة** ﴾ أى خصبا ونعمة وسعة وعافية ﴿ **فرحوا بها** ﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها إليهم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : ٥٨] . ثم قال سبحانه: ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ شدة على أى صفة ﴿**بما قدمت أيديهم**﴾ أى بسبب ذنوبهم ﴿**إذا هم يقنطون**﴾ القنوط: الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. وقال الحسن : القنوط: ترك فرائض الله سبحانه . قرأ الجمهور: «يقنطون » بضم النون. وقرأ أبو عمرو والكسائى ويعقوب بكسرها. ﴿ **أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾من عباده ويوسع له ﴿ **ويقدر** ﴾ أى يضيق على من يشاء لمصلحة فى التوسيع لمن وسع له ، وفى التضييق على من ضيق عليه ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ فيستدلون على الحق لدلالتها على كمال القدرة وبديع الصنع وغريب الخلق.

وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان يلبى أهل الشرك: لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا[١] هو لك ، تملكه وما ملك، فأنزل الله : ﴿ **هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء** ﴾ [٢] الآية . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هى فى الآلهة، وفيه يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ قال: دين الله ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ قال: القضاء القيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن الأسود بن سريع؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خيبر فقاتلوا المشركين، فانتهى القتل إلى الذرية، فلما جاؤوا قال النبى ﷺ : « ما حملكم على قتل الذرية » ؟ قالوا: يا رسول الله، إنما كانوا أولاد المشركين ، قال: « **وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذى نفسى بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها**»[٣]. وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا»[٤] رواه أحمد عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر . وقال الإمام أحمد فى المسند : حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ خطب يوما فقال فى خطبته حاكيا عن الله سبحانه : « وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » الحديث [٥] .

---

(١) فى المطبوعة : « شريك » ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) الطبرانى (١٢٣٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٢٦ : « فيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .

(٣) عبد الرزاق (٩٣٨٦) وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٤٠٧٧) وأحمد ٣/ ٤٣٥ وذكر أن السرية كانت إلى حنين ، والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦١٦) والحاكم ٢/ ١٢٣ وسكت عنه ، وقال الذهبى : « على شرط البخارى ومسلم » والبيهقى ٩/ ٧٧.

(٤) أحمد ٣/ ٣٥٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢١ : « فيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات » .

(٥) أحمد ٤/ ١٦٢ ومسلم فى الجنة (٢٨٦٥/ ٦٣) والطبرانى ١٧/ ٣٥٨ (٩٨٧) .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ .

لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغى من مواساة القرابة وأهل الحاجات ممن بسط الله له فى رزقه فقال : ﴿ **فآت ذا القربى حقه** ﴾ والخطاب للنبى ﷺ وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها ، والمراد : الإحسان إليهم بالصدقة و الصلة والبر ﴿ **والمسكين وابن السبيل** ﴾ أى وآت المسكين وابن السبيل حقهما الذى يستحقانه. ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجبا لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول. وقد اختلف فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل: هى منسوخة بآية المواريث. وقيل: محكمة وللقريب فى مال قريبه الغنى حق واجب، وبه قال مجاهد وقتادة. قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج. قال مقاتل: حق المسكين أن يتصدق عليه، وحق ابن السبيل الضيافة. وقيل المراد بالقربى: قرابة النبى ﷺ . قال القرطبى: والأول أصح، فإن حقهم مبين فى كتاب الله عز وجل فى قوله : ﴿فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى﴾ [الأنفال: ٤١] [(١)] وقال الحسن: إن الأمر فى إيتاء ذى القربى للندب﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾أى ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب إلى الله سبحانه ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالا لأمره.

---

(١) القرطبى٧/ ٥١١٧ .

﴿ **وما آتيتم من ربا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **آتيتم** ﴾ بالمد بمعنى أعطيتم، وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير بالقصربمعنى ما فعلتم، وأجمعوا على القراءة بالمد فى قوله : ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ وأصل الربى: الزيادة، وقراءة القصر تؤول إلى قراءة المد؛ لأن معناها: ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: أتيت خطأ وأتيت صوابا؛ والمعنى فى الآية : ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض ﴿ **ليربو فى أموال الناس** ﴾ أى ليزيد ويزكو فى أموالهم ﴿ **فلا يربو عند الله** ﴾ أى لا يبارك الله فيه. قال السدى: الربا فى هذا الموضع :الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة؛ لأن ذلك لا يربو عند الله، لا يؤجر عليه صاحبه ، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادة والضحاك. قال الواحدى: وهذا قول جماعة المفسرين. قال الزجاج: يعنى دفع الإنسان الشيء ليعوض أكثر منه وذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب فيه؛ لأن الذى يهبه يستدعى به ما هو أكثر منه. وقال الشعبى: معنى الآية أن ما خدم به الإنسان أحدا لينتفع به فى دنياه فإن ذلك النفع الذى يجزى به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: هذا كان حراما على النبى ﷺ على الخصوص لقوله سبحانه: ﴿ولا تمنن تستكثر ﴾ [المدثر: ٦] ومعناها: أن تعطى فتأخذ أكثر منه عوضا عنه. وقيل: إن هذه الآية نزلت فى هبة الثواب. قال ابن عطية: وما يجرى مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه. قال عكرمة: الربا ربوان: فربا حلال، وربا حرام. فأما الربا الحلال فهو الذى يهدى يلتمس ما هو أفضل منه: يعنى كما فى هذه الآية. وقيل: إن هذا الذى فى هذه الآية هو الربا المحرم، فمعنى لا يربو عند الله على هذا القول لا يحكم به، بل هو للمأخوذ منه.

قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالك: ينظر فيه، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب؛ له فله ذلك، مثل هبة الفقير للغنى، وهبة الخادم للمخدوم، وهبة الرجل لأميره، وهو أحد قولى الشافعى . وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط، وهو قول الشافعى الآخر. قرأ الجمهور: ﴿ **ليربو** ﴾ . بالتحتية على أن الفعل مسند إلى ضمير الربا. وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية مضمومة خطابا للجماعة بمعنى لتكونوا ذوى زيادات. وقرأ أبو مالك : « لتربوها » ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصا له ﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله** ﴾ أى وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿ **فأولئك هم المضعفون** ﴾ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن ومعطش ومضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. وقرأ أبى: « المضعفون » بفتح العين اسم مفعول .

﴿ **الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء** ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، وأنه الخالق الرزاق المميت المحيى، ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿ **هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء** ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئا من ذلك، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **سبحانه**

وتعالى عما يشركون ﴾ أى نزهوه تنزيها، وهو متعال عن أن يجوز عليه شىء من ذلك، وقوله: ﴿**من شركائكم** ﴾ خبر مقدم ومن للتبعيض ، والمبتدأ هو الموصول، أعنى: من يفعل، و﴿ **من ذلكم** ﴾ متعلق بمحذوف؛ لأنه حال من ﴿ **شىء** ﴾ المذكور بعده، ومن فى: ﴿**من شىء**﴾ مزيدة للتوكيد، وأضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة ، ويجعلون لهم نصيبا من أموالهم.

﴿**ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس** ﴾ بين سبحانه أن الشرك والمعاصى سبب لظهور الفساد فى العالم. واختلف فى معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف ونحو ذلك. وقال مجاهد وعكرمة: فساد البر: قتل ابن آدم أخاه، يعنى قتل قابيل لهابيل، وفى البحر: الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا. وليت شعرى أى دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب، فإن الآية نزلت على محمد ﷺ ، والتعريف فى الفساد يدل على الجنس، فيعم كل فساد واقع فى حيزى **البر** والبحر. وقال السدى: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. ويمكن أن يقال: إن الشرك وإن كان الفرد الكامل فى أنواع المعاصى، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه. وقيل: الفساد: كساد الأمعار وقلة المعاش. وقيل: الفساد: قطع السبل والظلم، وقيل : غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه. والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه، سواء كان راجعا إلى أفعال بنى آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أوراجعا إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع ونقصان الثمار. والبر والبحر هما المعروفان المشهوران. وقيل : البر: الفيافى ، والبحر: القرى التى على ماء، قاله عكرمة، والعرب تسمى الأمصار : البحار. قال مجاهد: البر: ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر: ما كان على شط نهر. والأول أولى. ويكون معنى البر: مدن البر، ومعنى البحر: مدن البحر، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها. والباء فى ﴿ **بما كسبت** ﴾ للسببية ، «ما» إما موصولة أو مصدرية ﴿**ليذيقهم بعض الذى عملوا**﴾ اللام متعلقة بظهر، وهى لام العلة، أى ليذيقهم عقاب بعض عملهم أو جزاء بعض عملهم ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ عما هم فيه من المعاصى ويتوبون إلى الله.

﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل** ﴾ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدى المشركين والعصاة بين لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأول، وأمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار، وجملة: ﴿**كان أكثرهم مشركين**﴾ مستأنفة لبيان الحالة التى كانوا عليها، وإيضاح السبب الذى صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه ﴿**فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له**﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ وأمته أسوته فيه، كأن المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم **فأقم** وجهك يا محمد إلخ. قال الزجاج: اجعل جهتك اتباع الدين القيم، وهو الإسلام المستقيم ﴿ **من قبل أن يأتى يوم** ﴾ يعنى: يوم

القيامة ﴿ **لا مرد له** ﴾ لا يقدر أحد على رده، والمرد مصدر ردّ. وقيل: المعنى: أوضح الحق وبالغ فى الأعذار، و﴿ **من الله** ﴾ يتعلق بـ ﴿ **يأتى** ﴾ أو بمحذوف يدل عليه المصدر، أى **لا يرده** من الله أحد. وقيل: يجوز أن يكون المعنى: لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وفيه من الضعف وسوء الأدب مع الله مالا يخفى. ﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ أصله يتصدعون ، والتصدع التفرق، يقال : تصدع القوم: إذا تفرقوا، ومنه قول الشاعر:

وكنا كندمانى جذيمة برهة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

والمراد بتفرقهم ها هنا : أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار. ﴿**من كفر فعليه كفره**﴾ أى جزاء كفره، وهو النار ﴿**ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون**﴾ أى يوطئون لأنفسهم منازل فى الجنة بالعمل الصالح، والمهاد: الفراش، وقد مهدت الفراش مهدا: إذا بسطته ووطأته، فجعل الأعمال الصالحة التى هى سبب لدخول الجنة كبناء المنازل فى الجنة وفرشها. وقيل: المعنى : فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم فى المشفق: أمٌّ فرشت فأنامت، وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص. وقال مجاهد : ﴿**فلأنفسهم يمهدون**﴾ فى القبر، واللام فى﴿**ليجزى الذين آمنوا**﴾ متعلقة بـ ﴿ **يصدعون** ﴾ ، أو ﴿ **يمهدون**﴾، أى يتفرقون ليجزى الله المؤمنين بما يستحقونه ﴿**من فضله**﴾ أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة ليجزيهم. وقيل: يتعلق بمحذوف . قال ابن عطية: تقديره : ذلك ليجزى ، وتكون الإشارة إلى ماتقدم من قوله: ﴿ **من عمل** ﴾ و﴿ **من كفر** ﴾ . وجعل أبو حيان قسيم قوله : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ محذوفا لدلالة قوله : ﴿ **إنه لا يحب الكافرين** ﴾ عليه ؛ لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه، وغضبه يستتبع عقوبته.

﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات** ﴾ أى ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدمه كما فى قوله سبحانه : ﴿ بشرا بين يدى رحمته ﴾ [النمل : ٦٣] قرأ الجمهور: ﴿ **الرياح** ﴾ وقرأ الأعمش : « الريح » بالإفراد على قصد الجنس لأجل قوله : ﴿**مبشرات** ﴾ واللام فى قوله : ﴿ **وليذيقكم من رحمته** ﴾ متعلقة بـ ﴿ **يرسل** ﴾ ، أى يرسل الرياح مبشرات ويرسلها ليذيقكم من رحمته، يعنى: الغيث والخصب. وقيل: هو متعلق بمحذوف ، أى وليذيقكم أرسلها. وقيل : الواو مزيدة على رأى من يجوز ذلك ، فتتعلق اللام بـ ﴿ **يرسل** ﴾ ﴿ **ولتجرى الفلك بأمره** ﴾ معطوف على ﴿ **ليذيقكم من رحمته** ﴾ أى يرسل الرياح لتجرى الفلك فى البحر عند هبوبها ، ولما أسند الجرى إلى الفلك عقبه بقوله : ﴿ **بأمره ولتبتغوا من فضله** ﴾ أى تبتغوا الرزق بالتجارة التى تحملها السفن ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ هذه النعم فتفردون الله بالعبادة وتستكثرون من الطاعة.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما آتيتم من ربا** ﴾ الآية قال : الربا ربوان : ربا لا بأس به وربا لا يصلح . فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد

فضلها وأضعافها. وأخرج البيهقى عنه قال: هذا هو الربا الحلال ، أن يهدى يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر، ونهى النبى ﷺ خاصة فقال : ﴿ولا تمنن تستكثر ﴾ [المدثر : ٦] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ قال : هى الصدقة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ ظهرالفساد فى البر والبحر ﴾ قال: البر: البرية التى ليس عندها نهر ، والبحر : ما كان من المدائن والقرى على شط نهر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: نقصان البركة بأعمال العباد كى يتوبوا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا: ﴿لعلهم يرجعون﴾ قال : من الذنوب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿يصدعون﴾ قال : يتفرقون .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ .

قوله : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم ﴾ كما أرسلناك إلى قومك ﴿ فجاؤوهم بالبينات ﴾ أى بالمعجزات والحجج النيرات ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أى فكفروا فانتقمنا ﴿ من الذين أجرموا ﴾ أى فعلوا الإجرام، وهى الآثام ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو صادق الوعد لايخلف الميعاد ، وفيه تشريف

للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين ، ووقف بعض القراء على ﴿ **حقا** ﴾ وجعل اسم كان ضميرا فيها وخبرها حقا، أى وكان الانتقام حقا. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، والصحيح أن نصر المؤمنين اسمها وحقا خبرها وعلينا متعلق بـ ﴿ **حقا** ﴾ ، أو بمحذوف هو صفة له. ﴿ **الله الذى يرسل الرياح** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وابن كثير وابن محيصن : « يرسل الريح » بالإفراد . وقرأ الباقون : ﴿ **الرياح** ﴾ قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة: ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾ إلى قوله: ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾ معترضة ﴿ **فتثير سحابا** ﴾ أى تزعجه من حيث هو ﴿ **فيبسطه فى السماء كيف يشاء** ﴾ تارة سائرا وتارة واقفا، وتارة مطبقا، وتارة غير مطبق، وتارة إلى مسافة بعيدة، وتارة إلى مسافة قريبة، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة وفى سورة النور ﴿ **ويجعله كسفا** ﴾ تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعا متفرقة، والكسف جمع كسفة. والكسفة: القطعة من السحاب . وقد تقدم تفسيره واختلاف القراءة فيه ﴿ **فترى الودق يخرج من خلاله** ﴾ الودق: المطر، و﴿ **من خلاله** ﴾ : من وسطه. وقرأ أبو العالية والضحاك: « يخرج من خلله » . ﴿ **فإذا أصاب به** ﴾ أى بالمطر ﴿ **من يشاء من عباده**﴾ أى بلادهم وأرضهم ﴿ **إذا هم يستبشرون** ﴾ إذا هى الفجائية، أى فاجؤوا الاستبشار بمجيء المطر، والاستبشار: الفرح .

﴿**وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم** ﴾ أى من قبل أن ينزل عليهم المطر، وإن هى المخففة وفيها ضمير شأن مقدر هو اسمها، أى وإن الشأن كانوا من من قبل أن ينزل عليهم، وقوله: ﴿**من قبله** ﴾ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس . وقال قطرب: إن الضميرفى: ﴿ **قبله** ﴾ راجع إلى المطر، أى وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر. وقيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل السحاب، أى من قبل رؤيته، واختار هذا النحاس. وقيل: الضمير عائد إلى الكسف. وقيل: إلى الإرسال. وقيل: إلى الاستبشار. والراجح الوجه الأول ، وما بعده من هذه الوجوه كلها ففى غاية التكلف والتعسف، وخبر كان ﴿ **لمبلسين** ﴾ أى آيسين أو بائسين . وقد تقدم تحقيق الكلام فى هذا.

﴿ **فانظر إلى أثر رحمت الله** ﴾ الناشئة عن إنزال المطر من النبات والثمار والزرائع التى بها يكون الخصب ورخاء العيش، أى انظر نظر اعتبار واستبصار لتستدل بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب. قرأ الجمهور:« أثر» بالتوحيد. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى : ﴿ **آثار** ﴾ بالجمع ﴿ **كيف يحيى الأرض بعد موتها** ﴾ فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه. وقيل : ضمير يعود إلى الأثر، وهذه الجملة فى محل نصب بانظر، أى انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض. وقرأ الجحدرى وأبو حيوة:« تحيى » بالفوقية على أن فاعله

ضمير يعود إلى الرحمة أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع ، والإشارة بقوله: ﴿ **إن ذلك** ﴾ إلى الله سبحانه، أى إن الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة ﴿ **لمحيى الموتى** ﴾ أى لقادر على إحيائهم فى الآخرة وبعثهم ومجازاتهم، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ أى عظيم القدرة كثيرها.

﴿**ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا** ﴾ الضمير فى: ﴿ **فرأوه** ﴾ يرجع إلى الزرع والنبات الذى كان من أثر رحمة الله، أى فرأوه مصفرا من البرد الناشئ عن الريح التى أرسلها الله بعد اخضراره. وقيل: راجع إلى الريح، وهو يجوز تذكيره وتأنيثه. وقيل : راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. وقيل: راجع إلى السحاب لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر، والأول أولى. واللام هى الموطئة. وجواب القسم ﴿**لظلوا من بعده يكفرون**﴾ وهو يسد مسد جواب الشرط. والمعنى: ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله ويجحدون نعمه، وفى هذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان. ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال : ﴿ **فإنك لا تسمع الموتى** ﴾ إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب ﴿ **ولا تسمع الصم الدعاء** ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق ووعظتهم بمواعظ الله، وذكرتهم الآخرة وما فيها، وقوله : ﴿ **إذا ولوا مدبرين** ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صم الآذان، قد تقدم تفسير هذا فى سورة النمل. ثم وصفهم بالعمى فقال : ﴿ **وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم** ﴾ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغى. أو لفقدهم للبصائر ﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أى ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر ﴿ **فهم مسلمون** ﴾ أى منقادون للحق متبعون له.

﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف** ﴾ ذكر سبحانه استدلالا آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، ومعنى من ضعف: من نطفة. قال الواحدى: قال المفسرون: من نطفة، والمعنى: من ذى ضعف. وقيل: المراد : حال الطفولية والصغر﴿ **ثم جعل من بعد ضعف قوة** ﴾ وهى قوة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوة وتشتد الخلقة إلى بلوغ النهاية ﴿ **ثم جعل من بعد قوة ضعفا** ﴾ أى عند الكبر والهرم ﴿ **وشيبة** ﴾ الشيبة هى: تمام الضعف ونهاية الكبر. قرأ الجمهور: « ضعف» بضم الضاد فى هذه المواضع . وقرأ عاصم وحمزة بفتحها. وقرأ الجحدرى بالفتح فى الأولين والضم فى الثالث. قال الفراء: الضم لغة قريش والفتح لغة تميم. قال الجوهرى: الضعف والضعف خلاف القوة، وقيل: هو بالفتح فى الرأى، وبالضم فى الجسم ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ يعنى: من جميع الأشياء، ومن جملتها القوة والضعف فى بنى آدم ﴿**وهو العليم**﴾ بتدبيره ﴿ **القدير** ﴾ على خلق ما يريده، وأجاز الكوفيون: « من ضعف » بفتح الضاد والعين.

﴿**ويوم تقوم الساعة**﴾ أى القيامة، وسميت ساعة لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا

﴿**يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة**﴾ أى يحلفون ما لبثوا فى الدنيا، أو فى قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم، واستقر ذلك فى أذهانهم، فحلفوا عليه وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. وقال ابن قتيبة: إنهم كذبوا فى هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل، وهذا هو الظاهر؛ لأنهم إن أرادوا لبثهم فى الدنيا فقد علم كل واحد منهم مقداره ، وإن أرادوا لبثهم فى القبور فقد حلفوا على جهالة إذ [1] كانوا لا يعرفون الأوقات فى البرزخ ﴿ **كذلك كانوا يؤفكون**﴾ يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصدق، فالمعنى : مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. وقيل: المراد: يصرفون عن الحق. وقيل: عن الخير، والأول أولى، وهو دليل على أن حلفهم كذب.

﴿**وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث**﴾ اختلف فى تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم ، فقيل: الملائكة. وقيل: الأنبياء. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع . ومعنى فى كتاب الله: فى علمه وقضائه. قال الزجاج: فى علم الله المثبت فى اللوح المحفوظ . قال الواحدى: والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير: وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله، وكان رد الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبهوهم على طريقة التبكيت بأن﴿هذا﴾ الوقت الذى صاروا فيه هو ﴿ **يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾ أنه حق ، بل كنتم تستعجلونه تكذيبا واستهزاء . ﴿**فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم**﴾ أى لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ولا يفيدهم علمهم بالقيامة. وقيل: لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. قرأ الجمهور: ﴿ **لا تنفع** ﴾ بالفوقية ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتحتية ﴿**ولا هم يستعتبون** ﴾ يقال: استعتبته فأعتبنى، أى استرضيته فأرضانى، وذلك إذا كنت جانيا عليه، وحقيقة أعتبته أزلت عتبه، والمعنى : أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إلى ذلك فى الدنيا .

﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أى من كل مثل من الأمثال التى تدلهم على توحيد الله وصدق رسله واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك ﴿**ولئن جئتهم بآية**﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية كالعصا واليد ﴿ **ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون** ﴾ أى ما أنت يا محمد وأصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر وما هو مشاكل له فى البطلان ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** ﴾ أى مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع الذى يهتدون به إلى الحق وينجون به من الباطل. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر معللا لذلك بحقية وعد الله وعدم الخلف فيه، فقال: ﴿ **فاصبر**﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى وتنظره من الأفعال الكفرية فإن الله قد وعدك

---

(١) فى المطبوعة : « إن » ، والأولى ما أثبتناه .

بالنصر عليهم وإعلاء حجتك وإظهار دعوتك ووعده حق لا خلف فيه ﴿ **ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** ﴾ أى لا يحملنك على الخفة ويستفزنك عن دينك وما أنت عليه، الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبى ﷺ. يقال: استخف فلان فلانا، أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى. قرأ الجمهور : ﴿ **يستخفنك** ﴾ بالخاء المعجمة والفاء، وقرأ يعقوب وابن إسحاق بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والنهى فى الآية من باب: لا أرينك ها هنا.

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »، ثم تلا : ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾ [(١)]. وهو من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء. وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عنه فى قوله:﴿فيجعله كسفا﴾ قال: قطعا بعضها فوق بعض﴿ **فترى الودق** ﴾ قال: المطر﴿ **يخرج من خلاله** ﴾ قال: من بينه. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية:﴿**إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء**﴾ فى دعاء النبى ﷺ لأهل بدر، والإسناد ضعيف. والمشهور فى الصحيحين وغيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة أن النبى ﷺ نادى أهل قليب بدر، وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص فقد قال النبى ﷺ لما قيل له: إنك تنادى أجسادا بالية:« ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » [(٢)] وفى مسلم من حديث أنس؛ أن عمر بن الخطاب لما سمع النبى ﷺ يناديهم، فقال: يا رسول الله ، تناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون ؟ يقول الله : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾ ، فقال : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا » [(٣)] .

---

(١) أحمد ٦/ ٤٤٩ والترمذى فى البر والصلة (١٩٣١) وقال: « هذا حديث حسن » .

(٢) أحمد ٢/ ١٣١ والبخارى فى الجنائز (١٣٧٠) .

(٣) مسلم فى الجنة (٢٨٧٤/ ٧٧) .